

مراحل تطوّر الشعر الشعبي الصوّفيّ الجزائريّ

Stages of development of Algerian Sufi folk poetry

د. صليحة سبّاق

ط. د. فتيحة لقدر*

جامعة محمد خيضر - بسكرة - (الجزائر)

جامعة محمد خيضر - بسكرة - (الجزائر)

مخبر وحدة البحث والتكوين في نظريات القراءة ومناهجها

saliha.sebgag@univ-biskra.dzfatiha.lagder@univ-biskra.dz

تاريخ القبول: ٢٠٢٥/٠٥/٠٣ النشر ٢٠٢٥/٠٦/٠٢

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٤/٠٢/١١

ملخص:

نسعى من وراء هذه الورقة البحثية إلى إمطة اللثام عن جنس أدبي مهم، وهو الشعر الصوّفيّ الجزائريّ، باعتباره تجربة إنسانية ووجدانية عميقة، لها حضور قويّ في فكرنا الإسلاميّ منذ القسّم؛ يعبر من خلالها الشاعر عن تجربته الشعريّة الصادقة التي تنطلق أساساً من مرجعية دينيّة، يسعى من خلالها الشاعر المتصوّف إلى التعبير عن الحبّ والعشق الإلهيّ، وحبّ الرّسول - صلى الله عليه وسلّم - وشيوخه، وشعرنا الجزائريّ سواء كان فصيحا أو شعبيّا تأثّر بالتراث الصوّفيّ، الذي عكس إلى حدّ بعيد الانتماء الحضاريّ، والثّقافيّ للمجتمع الجزائريّ في مراحل المختلفة.

وقد بدت معالم الصّوفيّة في الشعر الشعبيّ الجزائريّ منذ القسّم وصولاً إلى الفترة المعاصرة، لذا سنسعى إلى تبين مدى حضور التراث الصوّفيّ في الشعر الشعبيّ الجزائريّ؛ مع تتبّع مراحل تطوّر الشعر الشعبيّ الصوّفيّ الجزائريّ، مع التّعريف على بعض أعلامه. الكلمات المفتاحية: تصوّف؛ شعر صوّفيّ؛ شعر شعبيّ؛ حبّ إلهيّ؛ مراحل.

Abstract :

Through this research paper, we seek to unveil an important literary genre, which is Algerian popular Sufi poetry, as a deep human and emotional experience, which has a strong presence in our Islamic thought since ancient times, through which the poet expresses his sincere poetic experience, which stems mainly from a religious reference, through which the Sufi poet seeks to express love and divine adoration, and the love of the Prophet - may God bless him and grant him peace - and his sheikhs, and our Algerian poetry, whether eloquent or popular, was influenced by the Sufi heritage, which It largely reflected the civilizational and cultural affiliation of Algerian society in its various stages.

Sufism has appeared in Algerian folk poetry from ancient times to the contemporary period, so we will seek to show the extent of the presence of the Sufi heritage in Algerian folk poetry, while tracing the stages of development of Algerian Sufi folk poetry, while identifying some of its flags.

Keywords: Sufism; Sufi poetry; folk poetry; divine love; stages.

المقدمة:

يعتبر التصوّف من أهمّ المباحث الأساسية التي يدرسها الفكر الإسلاميّ إلى جانب علم الكلام والفلسفة، وهو مذهب ديني، انتشر في العالم الإسلاميّ في القرن الثالث الهجريّ، واحتلّ مكانة هامة وأساسية في تاريخ العرب والمسلمين؛ بما فيهم الجزائر، وله علاقة وطيدة بالأدب نثرا وشعرا، وقد استعان الشاعر الجزائريّ المتصوّف بتعاليم الطّرق الصّوفيّة التي ينتمي إليها للتعبير عن تجاربه الروحية الباطنيّة، وعن الحبّ والعشق الإلهي، وحبّ الرّسول - صلى الله عليه وسلّم - وشيوخه، فطبع الشّعْر بطابع دلاليّ صوفيّ رمزيّ، يستند إلى مرجعيات وخلفيات دينيّة عايشها الشّاعر خلال فترة زمنيّة معيّنة، وقد بدت معالم الصّوفيّة في الشّعْر عامة، وفي الشّعْر الشّعبيّ الجزائريّ خاصة منذ القلدم؛ باعتبار الشّعْر الشّعبيّ مرآة عاكسة لحياة الشّعب الجزائريّ، إذ يعبرّ من خلاله الشّاعر عن مختلف التجارب الإنسانيّة الماديّة والمعنويّة، وقد كان التّصوّف جزءا من هذا التّناج الشعريّ الشّعبيّ الجزائريّ، إذ اتخذ بعض الشّعراء من الشّعْر الشّعبيّ الصّوفيّ مطيّة للدّفاع عن بعض الطّرق الصّوفيّة، والمكتسبات الدّينيّة؛ فظهر ما يسمّى بالشّعْر الشّعبيّ الصّوفيّ، والذي بدت بوادره في الجزائر منذ العهد الحماديّ؛ حيث شاعت الأزجال الصّوفيّة، واستمرّ إلى العصر الحديث، وترعرع في أحضان الرّوايا والطّرق الصّوفيّة، وقد عكس الشّاعر الجزائريّ من خلاله تجربته الشعوريّة، وانتماءه الحضاريّ والثّقافي للمجتمع الجزائريّ في مراحل المختلفة، وقد ارتبط ظهور هذا النّوع من الشّعْر بالواقع المرير الذي صار يتخبط فيه الشّاعر الشّعبيّ الجزائريّ، بفعل الشّعور بالقهر والغربة، ممّا جعل الشّاعر يبحث عن عالم آخر أفضل وأطهر وأنقى، عالم مفعم بالعفة والقداسة الدّينيّة، كما اتخذ بعض الشّعراء من الشّعْر الشّعبيّ الصّوفيّ وسيلة للدّفاع عن بعض الطرق الصّوفيّة.

وسنحاول من خلال ورقتنا البحثيّة هذه أن نبين مدى حضور التّراث الصّوفيّ في الشّعْر الشّعبيّ الجزائريّ؛ مع تتبّع مراحل تطوّر الشّعْر الشّعبيّ الصّوفيّ الجزائريّ، وخصائص كلّ مرحلة، ولعلّ أنسب منهج للموضوع المختار هو المنهج التّاريخي، لكونه الأقدر على تقصّي ومتابعة تطوّر الشّعْر الشّعبيّ الصّوفيّ، وظاهرة التّصوّف عامة على مرّ التّاريخ، إلى جانب المنهج الوصفيّ التّحليليّ المناسب لإبراز بعض المفاتيح الهامة للدّخول إلى هذه الدّراسة، وتحليلها، كتعريف التّصوّف، وتتبع حضوره في الشّعْر الشّعبيّ الجزائريّ، وتحليل سماته، إلى جانب تعريف الشّعْر الشّعبيّ الصّوفيّ؛ هذا وسنحاول من خلال هذه الورقة البحثيّة الإجابة عن بعض الأسئلة التي تطرحها إشكالية البحث والتي تتمثّل في: ما معنى التّصوّف؟ وما هي علاقته بالأدب بصفة عامة، وبالشّعْر الشّعبيّ الجزائريّ بصفة خاصّة؟، وما المراحل التي مرّ بها الشّعْر الشّعبيّ الصّوفيّ في الجزائر؟، وما هي أهمّ مميّزات كلّ مرحلة؟ وما مدى مساهمته في مواكبة التّطوّرات والأحداث التي مرّت بها الأمة الجزائريّة؟

١- مفهوم التّصوّف:

* لغة: التّصوّف هو الاسم الذي أطلق على من اتّبعوا الصّوفيّة، وقد اختلف في أصله، وفي مصدر اشتقاقه لغة، ولا زالوا مختلفين فيه حتّى اليوم، فلقد نقل "الطّوسي" أبو نصر السّراج في كتابه الذي يعدّ أقدم مرجع صوفيّ، أنّه قال: كان في الأصل صفوى، فاستقلّ ذلك، فقيل: صوفي، وبمثل ذلك نقل عن "أبي الحسن الكّناد": هو مأخوذ من

الصّفاء، وينقل "الكلاباذي"؛ عن الصّوفية أقوالاً عديدة في أصل هذه الكلمة واشتقاقها، فقال: قالت طائفة: إنّما سميت الصّوفية صوفية لصفاء أسرارها، ونقاء آثارها، وقال بشر بن الحارث: الصّوّيّ من صفت الله معاملته، فصفت له من الله -عزّ وجلّ- كرامته، وقال قوم: إنّما سمو صوفية لأنّهم في الصّفّ الأوّل بين يدي الله، وهناك من قال بأنّه من الصّوف (إلهي، ظهير، ١٩٨٦م، صفحة ٢٠)، وما نلاحظه من كلّ ما سبق، الاختلاف الكبير الموجود في تعريف المصطلح من الناحية اللّغويّة، ولعلّ أقربها للمعنى الاصطلاحيّ، هو من صفت أخلاقه، ومعاملاته، واقترب من الله تعالى بأفعاله، مُعرضاً عن شهوات الدّنيا.

*** اصطلاحاً:** اختلف بعض العلماء في تعريفهم للتّصوّف، واختلفت تعريفاتهم من مرحلة إلى أخرى، ومن هذه التعريفات: "التّصوّف هو العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدّنيا وزينتها، والرّهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذّة ومال" (عبد الله خضر، ٢٠١٦م، صفحة ١٤)، أي أنّ التّصوّف يرتبط بالجانب الأخلاقيّ والدّينيّ، وهذا التعريف هو أقرب إلى الرّهد، من ناحية ترقّع المتصوّف عن ملذّات وشهوات الحياة الدّنيا، باختلاف أشكالها، بغية التّقرب من الله عزّ وجلّ، ونيل رضاه.

وسئل أبو حسين النوري (ت ٢٩٥هـ) عن التّصوف فقال: هو ترك حظّ النّفس، وأورد الجنيد (ت ٢٩٧هـ) تعريفاً جامعاً مانعاً للتّصوّف وهو: تصفية القلب عن موافقة البريّة، ومفارقة الأخلاق الطّبيعيّة، وإلحاد الصّفات البشريّة ومجانبة الدّواعي النّفسانيّة، ومنازلة الصّفات الروحانيّة.. ويرى الغزالي (ت ٥٠٥هـ) أنّ التّصوّف هو: إخلاص القلب لله تعالى، واستحقاق ما سوى الله، وحاصله يرجع إلى عمل القلب والجوارح، (عبد الله خضر، ٢٠١٦م، صفحة ١٦)، وما يلاحظ على التعاريف الاصطلاحيّة المذكورة أنّها تقترب من تصوّر واحد، سبق وأنّ أشرنا إليه حتّى في تعريف التّصوّف من الناحية اللّغويّة، وهو الحرص على القيام بالعبادات التي من شأنها تقرب المتصوّف من خالقه، ومحاربة كلّ ما من شأنه أن يضعف النّفس، ويوقعها في شهوات الدّنيا الفانيّة، مع الإخلاص في العبادة وجعلها لوجه الله تعالى.

٢- نشأة التّصوف في الجزائر وأطواره: لقد انتشر التّصوّف في الجزائر، التي كانت معبراً ومزاراً للعلماء والفقهاء والمتصوفة؛ مثل أبي مدين شعيب التلمساني الذي نزل ببجاية في ذلك العهد واستقرّ بها، وابن عربي الذي أثار بنظره وحدة الوجود في البيعة الجزائرية أثناء زيارته لها، ولقائه بشيخه أبي مدين، ويفسّر انتشار التّصوف في الجزائر، بكثرة الطّرق والزّوايا الصّوفية، ومن بينها: الرّحمانيّة، والقادريّة، والشاذليّة، والعيساويّة، والدراقويّة، والسّوسية والتيجانيّة... (لعور، ٢٠٢١، صفحة ٦٤، ٦٥).

وقد ظهر التّصوف في الجزائر، أو ما يعرف قديماً بالمغرب الأوسط مع بداية القرن السّادس الهجريّ، وكان تصوّفاً نظريّاً، ثمّ اتّجه نحو الجانب العمليّ ابتداءً من القرن العاشر الهجريّ، فأصبح يطلق عليه تصوّف الزّوايا والطّرق الصّوفية. وقد ظلّ هذا التّصوّف العمليّ سائداً في جميع أنحاء المغرب الإسلامي، حتّى بعد سقوط الدّويلات الثلاث (الزّبانية والحفصية والمرينية)، ودخول الأتراك العثمانيين، (نقروش، ٢٠٢٠م، صفحة ٣)، وقد مرّ التّصوف في الجزائر بمرحلتين أساسيتين هما:

أ-فترة التصوف النخبوي: وذلك خلال القرن السادس والسابع والثامن الهجري، وفي هذه المرحلة اقتصر تعليم التصوف على المدارس الخاصة، وعلى طبقة من المتعلمين دون غيرها، وقد بقي حبيس الحواضر الكبرى كبحاية، ووهران، ولم ينتشر عند باقي الطبقات الشعبية. (نقروش، ٢٠٢٠م، صفحة ٣، ٤)

ب-فترة التصوف الشعبي: وقد ظهرت خلال القرن التاسع الهجري، انتقل التصوف في هذه المرحلة من الجانب النظري إلى الجانب العملي، بفضل الانتشار الكبير للزوايا والربط في الريف والمدن، وقد فتح باب التصوف في هذه المرحلة للعامة وأهل الريف، وانتقل من النخبة إلى العامة، ومن المدينة إلى الريف، وظهرت الطرق الصوفية الكبرى. (نقروش، ٢٠٢٠م، صفحة ٤).

٣-الشعر الشعبي وعلاقته بالتصوف: أشار العلامة ابن خلدون في مقدمته إلى الشعر الملحون أو الشعبي؛ فذكر أنّ واضعه هو رجل من أهل الأندلس، كان يعرف بابن عُمَيْر الذي نزل مدينة فاس وعنه نقل الناس هذا الأسلوب في نظم الشعر بدون تكلف. (سعيد، ٢٠٠٧م، صفحة د ص)، ويقصد بالشعر الشعبي ما نظم من كلام عامي؛ وفق قوالب شعرية وغنائية من أغان وأهازيج، عبّر عن الوجدان الشعبي للمجتمع الذي يمثله، وهو تراث أدبي غني وثري؛ يمثل تاريخ الشعب، وجغرافية المنطقة، وحضارة إنسانية؛ (نصر، دت، صفحة ٥٣)، والشاعر الشعبي الصوفي متأثر بالثقافة الدينية، والشعبية التي أخذها من محيطه والوسط الذي عاش فيه، وفي هذا السياق ينبغي التأكيد على أنّ معظم شعراء الملحون الجزائريين والمغاربة هم من الصوفية، و نذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر: سيدي لخضر بن خلوف، عبد العزيز المغراوي، الحاج محمد النجار، الحاج عيسى لغواطي، الشيخ عبد الرحمن المجدوب، الحاج مبارك بو لطباق، سيدي أحمد لغارابلي، سيدي أحمد بن عودة، سيدي بلحسن.... (سعيد، ٢٠٠٧م، صفحة دص)، فالشعراء الصوفيون الجزائريون درسوا عند شيوخ الصوفية، وتشبعوا بالروح الدينية التي ميّرت لغتهم، والكثير منهم ينتمي إلى طريقة من تلك الطرق الصوفية التي انتشرت في الجزائر، وقد جعلوا من شعرهم وسيلة لنقل أفكارهم الصوفية، لنشر رؤيتهم الخاصة.

وقد استعمل الناقد والباحث الجزائري عبد الله ركيبي مصطلح الشعر الملحون ليدلّ على الشعر الشعبي الجزائري؛ الذي اتخذ من العامية الدارجة وسيلة له، و أداة للتعبير عن عواطفه، فكثيرا من قصائد هذا الشعر، وخاصة منه الرّجل، إنّما ألّفت بقصد الغناء والتّلميح، خاصة الشعر الديني، لأنّ الهدف هو الوجدان الصوفي الذي يقضي تمايلا و اهتزازا خاصا بصاحب الإنشاد (مراد، ٢٠٠٧م، ٢٠٠٨م، صفحة ٤٢٣)، وهكذا يطلق عبد الله ركيبي مصطلح الشعر الملحون على الشعر الشعبي الجزائري، وذلك لما يحتويه من صبغة غنائية إنشادية، تركز على التأثير العاطفي الوجداني أساسا، كالمدائح النبوية والشعر الصوفي، المكتوب باللغة العامية، والذي يندرج ضمن الشعر الديني.

أما الناقد العربي دحّو فيفضّل مصطلح "الشعبي" على "الملحون"، باعتباره اسما شاملا للنص الشعري غير الأكاديمي، كما يعتبر أنّ "الشعبي" مصطلح مناسب للبيئة العربية مع اعترافه باشتهار مصطلح "الملحون" لاسيما في البيئة الصحراوية، ويوظّف الباحث المغربي عباس الجراري مصطلح الرّجل في كتاباته في قوله: فإننا نفضل إطلاق الرّجل على كلّ أنواع الشعر الشعبي (العقريب، ٢٠١٤م، ٢٠١٥م، صفحة ٤٨).

والشعر الصوفي الشعبي: هو الذي يعبر عن تجربة وجدانية ذاتية وروحية؛ تعتمد على الاتصال بجوهر الوجود وباطنه، بلغة مشحونة بالإيحاء، لأن موضوعها (الحب، الروح، الحياة، الموت، مناجاة النفس، مخاطبة الخالق)، (أمديون، ٢٠٢٢م، صفحة دص)، وقد تأثر الوجدان المغربي والجزائري خاصة، منذ قرون بالتصوف الإسلامي، وتظهر في عبادات الناس وسلوكهم الروحي والعملي وعقائدهم، ومختلف وسائل تعبيرهم اللفظية كاللّقاء والأمثال والحكم، إلى جانب الشعر، خاصة الشعر الملحون الصوفي، (أمديون، ٢٠٢٢م، صفحة دص)، ومن الشعراء الشعبيين الجزائريين الذين التزموا بمبادئ وأخلاق ومظاهر المتصوفة، نذكر على سبيل المثال: أبو مدين شعيب، وعبد الله بن أبي سعيد المنداسي، والشاعر قدور بن عاشور، ومحمد بن سهلة، وكذلك الشاعر سيدي الأخضر بن خلوف وغيرهم، ولقد كان شعرهم مرآة عاكسة لحياتهم التي تتناسب وحياة المتصوفة في التواضع والبساطة، والانقطاع عن الدنيا وشواغلها، والانزواء في ركن معين للعبادة والتذكر، والاستغفار والتفكير في الحياة الأخرى (حشفالي، ٢٠١٣م، صفحة ٢٦٤).

٤- **مراحل تطوّر الشعر الشعبي الصوفي الجزائري:** وجدنا صعوبة كبيرة في تحديد مراحل تطوّر الشعر الشعبي الصوفي الجزائري، لأنّ التصنيفات التي وجدت في الدراسات النقدية تتحدّث عن الشعر الشعبي بصفة عامة، أو تتحدّث عن المراحل باعتبار الخصائص، كما فعلت الباحثة سوسن إبرداشة، لكن بعد اطلاعنا على الكثير من الدراسات الأكاديمية، ومنها دراسات الدكتور كمال لعور، وأبو قاسم سعد الله، إلى جانب أطاريح دكتوراه ومقالات، وجدنا أنّ المراحل الأساسية التي مرّ بها الشعر الشعبي الصوفي هي:

أ- المرحلة الأولى: في العهد الحمادي (انتشار الأزجال والموشحات): لقد كانت مدينة بجاية معقلا صوفيا مهماً خلال الفترة الوسيطة، والتي ظلّت تحت سيطرتهم إلى غاية سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣١-١٢٣٢م، وقد عاشت بجاية تحت حكم ثلاث دول إسلامية: الحمادية، الموحدية، الحفصية، ولقد سلك الحماديون سياسة الانفتاح تجاه الصوفية، فعرفت الحياة الاجتماعية والدينية تحت حكمهم حرية معتبرة، فكان الحماديون يحترمون أهل الرّبط ولا يتدخلون في شؤونهم؛ الأمر الذي شجّع الكثير من الصوفية المغاربة، والأندلسيين على اللّجوء إلى حواضر ومدن الدولة الحمادية، وعلى رأسها بجاية، وهذا بسبب تشدّد السلطة المرابطية معهم، والتضييق عليهم، (بومدين، ٢٠٢٢م، صفحة ٦١)، فالظرف التاريخي كان سببا مباشرا لانتشار الصوفية، والشعر الصوفي بالتحديد، وهذا بفضل الحرية التي منحها الحماديون للشعراء الصوفيين، ما جعل إقبال أعلام الصوفية إلى مدنها وحواضرها كبيرا، حتّى من الدّول الأخرى، كالمغاربة والأندلسيين.

وفي العهد الحمادي وبالتحديد في مدينة بجاية، شاعت الأزجال الصوفية، ومن روادها أبو مدين التلمساني (٥٠٩هـ، ٥٩٥هـ)، والزجل هو القول الشعري المنطوق بلهجة عامية مهدّبة خالية من قواعد الإعراب، وهو الفن الثاني المستحدث ببلاد الأندلس، وكان للأندلسيين تأثير قويّ في تقوية نزعة الشعر الشعبي، خاصة بعد سقوط الأندلس، وهجرة أهلها الذين ساهموا في نقل ثقافتهم إلى الأماكن التي استوطنوها، (مساعدة، ٢٠١٦م، ٢٠١٧م، صفحة ٤٧، ٤٨)، إذ أنّ إقبال الأندلسيين إلى مدينة بجاية، كان له أثر كبير على ظهور الشعر الشعبي الصوفي والذي كان في البداية عبارة عن أزجال صوفية وموشحات.

وكان الشاعر الشعبي يجالس العلماء، ويستمتع إليهم، ويحضّر دروس الفقهاء، ويستفيد منها، وقد أكسبه هذا الكثير من المفردات والمسائل الدينيّة، ومن بين الأشكال الممارسة في الأدب الشعبي الصوّفيّ فنّ الموشّحات الجزائريّة، التي هي في اعتقاد البعض أقرب إلى الشعر الشعبي منها إلى الشعر المعرّب سواء من حيث لغتها أو تراكيبها، إذ يقول التّليّ بن الشيخ: ونحن نتفق مع بعض الدّارسين في إدخال الموشّحات الجزائريّة ضمن حظيرة الشعر الشعبي، (عبد القادر، ٢٠١٨م، صفحة ٥٤) ويعود الفضل خاصة لهجرة الأندلسيين إلى الجزائر أيام الدّولة الحماديّة في ظهور الموشّحات والأزجال في الشعر الجزائريّ، ومن رواد هذه المرحلة في العهد الحماديّ:

*أبو مدين شعيب الغوث: ينحدر الشّيخ أبو مدين من مدينة إشبيلية بالأندلس؛ عاش جلّ حياته ببجاية، ويعدّ أبو مدين من الأوائل في المغرب؛ ممّن قصدوا القصيدة في الحبّ الإلهيّ، (لعور، ٢٠٢١، صفحة ٦٥، ٦٦) وينتمي الشّيخ أبو مدين إلى الطريقة الصّوفيّة القادريّة؛ والتي تعتبر أقدم طريقة صوفيّة في الجزائر؛ دخلت إلى المغرب العربيّ عن طريق الرّحلات بين مصر والأندلس، وللشّيخ أبي مدين شعيب مكانة مرموقة في الوسط الشعبيّ، وهو أقدم صوفيّ عرفته بقعة الجزائر والمغرب، وقد جمع بين التّصوف النظريّ والعملّيّ، وبين الممارسة الصّوفيّة والشعر الصّوفيّ، وقد كان شعره مفعم بحب الله تعالى، (شعيب، ٢٠١١م، صفحة ٨) ومن موشّحاته، والتي هي أقرب إلى الشعر الشعبيّ الصّوفيّ لبساطتها قوله:

يا مَنْ لا ذاق سُكْر طَعْمِ الْمَحَبَّةِ وَلَا رَيَّاهُ بِالذُّوقِ وَلَا تَرَبَّى
وَلَا نَادَاهُ ساقِ وَلَا قَطُّ لَيَّ وَلَا شَهِدَ لَدَّةَ الْمَشَاهِدِ
أَفْقَى كَم مَمْلُوكٍ فِي بابِ الْمَمَالِكِ

أَطْلُبُ وَائِفَ الشُّكُوكِ تَتَرَقَّى ذَا الْوِدَادِ لِمَنْ عَرَفَ مَوْلَاهُ الْمَدْدُ الْمَدْدُ
أَيَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَا حَبِيبَ اللَّهِ

اعْرِفْ تَعْرِفْ بِمَعْرِفَةِ الْمَوَالِي وَتَوَاضَعْ لَوْ تَكُنْ فِي الْمَعَالِي
عَسَى تَبْلُغَ مَا بَلَغَتِ الرِّجَالُ وَتَتَحَقَّقَ بِحَقَائِقِ كُلِّ وَالِي
تَسْلُكُ هَذَا الطَّرِيقَ يَسْطَعُ نوركِ شَرِيقَ

وبالله التوفيق تُعطى لك الأسرار لِمَنْ عَرَفَ مَوْلَاهُ الْمَدْدُ الْمَدْدُ (شعيب، ٢٠١١م، صفحة ٥١)
وقد كان لأبي مدين قدرة كبيرة على إنزال التّصوف إلى عامة الشعب، وقد عمل على تقوية صلة الكثيرين بالله، وتذكيرهم بالآخرة، وتوجيههم همهم، كما سعى إلى تهذيب النفوس، والدّعوة إلى إفراد العبوديّة إلى الله تعالى والتّقرب منه، (فرحات، ٢٠٠٣م، صفحة ٨٧) وللشّيخ موشّح آخر يظهر فيه حبّه لله تعالى يقول فيه:

إِنِّي إِذَا مَا ذَكَرْتُ رَبِّي يَهْتَرُّ شَوْقِي إِلَى لِقَائِهِ
طَلَبْتُ حَيَاتِي وَضَاءَ قَلْبِي بِذِكْرِ رَبِّي جَلَّ ثَنَاهُ
مَا ذَاقَ طَعْمَ الْغَرَامِ إِلَّا مَنْ عَرَفَ الْوَصْلَ أَوْ دَرَاهُ

يا قورّ قوم بالله فزّوا فلم يروا في الوريّ سواه (شعيب، ٢٠١١م، صفحة ٨٢).

*الششتري: وهو علي بن عبد الله النميري، الشيخ العارف، كان من أبناء الملوك ثم صار من سادات الصوفية، تتلمذ على يد أبي مدين، وقد تنبّه المؤرخون إلى أثر طريقة المدينية في حياته؛ فعبروا عنه بالمديني، وكان من المحتمل أن يبقى الششتري مدينيًا طيلة حياته، لولا مقابلته لابن سبعين في بجاية سنة ٦٤٨ هـ، الذي غير الاتجاه الروحي الباطني للرجل تمامًا، وجعله يتجه نحو التصوف الفلسفي، (شاكر، ٢٠١٢م، صفحة ٩٧، ٩٨) وقد رحل إلى القاهرة، واعتبر الششتري فيما بعد شاذليًا، واحتل مكانًا في سلسلة رجال الطريقة، و كان إماماً لطريقة جديدة هي الششتريّة، (شاكر، ٢٠١٢م، صفحة ٩٩)، و يعطينا ابن عباد الرندي صورة واضحة عن قيمة الرجل وشعره إذ يقول: "وأما أزجال الششتري ففيها حلاوة وعليها طلاوة"، وما زال أثر الششتري الصوفيّ باقيا حتى الآن في شمال إفريقيا، (الششتري، ١٩٦٠م، صفحة ٣، ٤) وقد تنقل الششتريّ كثيرا، من الأندلس إلى مراكش إلى بجاية ثم طرابلس، وفي المشرق بين مصر والحجاز والشام، وعرف في تنقله عدّة مذاهب صوفيّة، بين مدينية وهو في الأندلس، ثم تعرّف عليها أكثر أثناء إقامته في بجاية، وسبعينية في المغرب والمشرق وشاذلية في مصر، وأبرز ما تلمحه في بنائه للموشحات والأزجال هو ذلك التقارب الموجود بين هذين الفنين؛ مع بقاء البناء المغرب للموشحات، والبناء العامي؛ الذي يسكن أواخر الكلمات في الأزجال، (حمادة، ٢٠١٤م، ٢٠١٥م، صفحة ١٥٥)، وهكذا تنوّعت مصادر الصوفيّة عند الشاعر، والتي تجلّت في ديوانه الشعريّ، من خلال أزجاله وموشحاته.

وقد درس الفلسفة على أستاذه ابن سبعين، أمّا معرفته بالشعر وخاصه الموشحات والأزجال الاندلسية، فكانت على جانب كبير من العمق، (الششتري، ١٩٦٠م، صفحة ٧) وقد استطاع الششتريّ من خلال أزجاله الصوفيّة التقرب من عامة الناس، فقد حاول الشاعر تقريب معانيه، وأفكاره، وآرائه إلى الشعب لينفذ إلى قلوبهم، ويؤثر فيهم، لذلك راح يتفنّن في استخدام اللغة العاميّة، ويطوّعها للتعبير عن طريقته في التصوّف، ومن هذه الصّور المعبرة عن وحدة الوجود، والوحدة المطلقة، قوله في هذا المقطع الشعريّ من الرّجل:

انظر جمالي شاهدا في كلّ إنسان

كالماء نافذا يجري في أس الأغصان (معاش، ٢٠١٠م، ٢٠١١م، صفحة ١٨٩).

ومن المرجّح - مع بعض التحفظ أنّ الصّوفيّة في الأغلب يكتبون لعامة الناس، فهم لا يبالغون في تخيير الفصيح من الألفاظ ولا يدقّقون في صقل الأساليب، وذلك يدلّ على أنّ البلاغة عندهم تقوم على أساس أصيل هو تبليغ الدّعوة إلى عامة الناس، (شاكر، ٢٠١٢م، صفحة ١٠٤) لذا كان أسلوبهم قريبا جدّا من الشعر الشعبيّ، وهو أسلوب بسيط وسهل، وفي نفس الوقت عميق بدلالاته الرمزيّة المكثّفة، والششتري يصوّر لنا في أزجاله تعلق الناس بالله -عزّ وجلّ- طمعا في نيل رضاه، ولا يمكن فهم رجزه إلّا في ضوء الرّؤية الصّوفيّة إذ يقول:

الله الله هاموا الرجال في حب الحبيب

الله الله معي حاضر في قلبي قريب

ادلل يا قلبي وافرح حبيبك حضر

و اتنعم بذكر مولاك وقص الأثر

دعوني دعوني نذكر حبيبي بذكروا نطيب

الله الله معي حاضر في قلبي قريب (معاش، ٢٠١٠م، ٢٠١١م، صفحة ٢٠٨).

ومن موشحاته وهو مزيج بين الفصحى واللهجة الأندلسية:

بَعْضِي يَا كُلِّي اسْمَعْ إِنَّ رُوحِي لِذَاتِي

مَا لِي وَهُمْ فِيهِ نَرْتَعُ وَلَا طُورُ الصَّفَاتِ

فَأَنَا لَا نُخَيِّلُ وَلَا نَنْظُرُ لِعَيْرِي

ثُمَّ سِرٌّ لَا يُمَثَّلُ لَا بَزِيدَ وَعَمْرٍو (الششتري، ١٩٦٠م، صفحة ١١٥)

ومن أبرز إضافات "الششتري" لفني الموشحات والأزجال-على السواء- قدرته الفائقة في التعبير على رؤيته الصوفية، بأسلوب بسيط أقرب إلى العامية، وقد تناول معظم القضايا الصوفية، والفلسفية التي أثارت جدلا واسعا؛ كفكرة الوحدة المطلقة، الخلق الجديد، نظرية الخيال، البرزخ...، وغيرها من الأفكار التي طوّعها لهُذين الفنين، بأسلوب سهل وبسيط، يقترب من الشعر الشعبي (حمادة، ٢٠١٤م، ٢٠١٥م، صفحة ١٥٤).

ب-المرحلة الثانية في العهد العثماني: تمثل الفترة ما بين القرنين السادس عشر، والثامن عشر، وقد شهدت مجيء العثمانيين؛ لنجدة الجزائريين، بسبب التّحرّشات المتواصلة للمسيحيين الإسبان وغيرهم، كما عرفت انتشار الجهاد والحماس الديني، لردّ المعتدين على البلاد الجزائرية، ويظهر في هذا العهد التحالف الاستراتيجي بين رجال التصوف، والمرابطين والسلطة العثمانية، واستمرّ هذا التحالف طيلة القرنين السادس عشر والسابع عشر، (صحراوي، ٢٠٠٨م، ٢٠٠٩م، صفحة د)، ويعدّ العهد التركي بحق أخصب عهد عرفت فيه القصيدة الشعبية، فعُدّت أحد أهمّ المؤثرات الثقافية في هذا العهد، وقد ظهر الشعر الشعبي، وانتشر بسرعة، وعدّ كأحد أهمّ وسائل التعبير عن المجتمع الجزائري في هذه الفترة، (سعد الله، ١٩٩٨م، صفحة ٣١٢، ٣١٣)، ويذهب عبد الله ركيبي في المسار ذاته قائلا: عاشت الموشحات والأزجال الأدبية منذ عصور قديمة، ولا بدّ أنّه كان لها أثرها في الشعر الملحون، أثناء حكم الأتراك للجزائر، فانتشرت القصائد الدينية من مديح وتوسّل وتقرب إلى الله، وذكر الأولياء...، وقد خلف الرّجل تأثيرا هاما في تشكيل الشعر الشعبي، (مساعدي، ٢٠١٦م، ٢٠١٧م، صفحة ٤٨)، وبهذا انتشرت القصيدة الشعبية، الصوفية. ومن أشهر شعراء هذه الفترة:

*الأكحل (الأخضر) بن خلوف: في القرن السادس عشر ميلادي، ويهتم في شعره الشعبي الصوفي بالمقام الصوفي، خاصة، وهو أقدم شاعر شعبي، كما يقال أنّه من عباد الله الصالحين في منطقة مستغانم، (العقريب، ٢٠١٤م، ٢٠١٥م، صفحة ٢٤٨)، وقد تميّز العصر التركي الذي نشأ الشاعر بين أحضانه باضطرابات داخلية، وتحرّشات خارجية من إسبانيا وحليفاتها، إضافة إلى الفوضى، والهزّات الاقتصادية والاجتماعية الصعبة، وقد قيل أنّه ولد في أوائل الحكم العثماني للجزائر أي في أواخر القرن الثامن الهجري، (عبد القادر، ٢٠١٨م، صفحة ٥٦) والشاعر سيدي الأخضر بن خلوف أسهب في مدح الرسول-صلّى الله عليه وسلّم-، فبرز في شعر المدائح النبوية، و تميّز شعر التصوف عنده بالغموض، نتيجة اعتماده على التعابير الصوفية المكثفة دلاليًا، والتي تحمل معان كثيرة، (حشفي،

٢٠١٣م، صفحة ٢٦٤)، وقد صوّر لنا في أشعاره رؤيته الصّوفيّة، من خلال تعبيره عن حبّه لله —عزّ وجلّ—، إلى جانب إبراز شوقه وحبّه لشفيّعهنا يوم القيامة، سيّدنا محمد—صلى الله عليه وسلّم—ويطلب الشفاعة منه له، ولأهله ولأمّته، ولجميع الخلق، بمن فيهم التقاة والعصاة، يوم الحساب، ثم يذكر الشاعر بفضل قراءة القرآن، وحفظ كتاب الله تعالى وهذا ما يظهر في قوله:

حسن ما يقال عندي باسم الله وبيك نبدا
حبك في سلطان جسدي ما عزك يا عين وحدا
يا محمد أنت سيدي صلى الله عليك لبدا
لا غيرك مناع بمنع من سطوة مول الموالي
لا غير كشفيّع يشفع من هو عرة بحالي
داوني بدواك نبرا من وسواس آلا نراه
فضل الله كتابه عندي يكفيني قوتي وغدا

نظم به القوم وحدي نفسي والشيطان الأعدا (حشفاي، ٢٠١٣م، صفحة ٢٦٤، ٢٦٥)

ويعتبر سيدي الأخضر بن خلوف أحد فحول الشعر الشّعبي المشهورين ببلاد المغرب العربيّ عامة، وبالجزائر خاصة، ترك هذا الشّاعر تراثا شعريّا ضخما، (عبد القادر، ٢٠١٦م، صفحة دص)، ويبدو الشّاعر من خلال أشعاره أنّه كان زاهداً ومتصوّفاً أكثر من كونه شاعراً شعبيّاً؛ فحين نقرأ قصائده تستوقفنا المقامات الصّوفية التي تجلّت فيها من خلال تعابيره الرّمزيّة التي تغوص في عالم الوجد والفيض والوله، وقد كان لسلطة المقامات الصّوفية حضور طاغ؛ ولعلّ حبّه الشّديد لله عزّ وجلّ، ولرسوله الكريم، ساعده كثيراً في التعبير عن أحاسيسه وعشقه الإلهي؛ فمقام العشق الإلهي عنده بلغ أعلى مرتبة من مراتب المقامات الصّوفية عنده، (إبرداشة، ٢٠١٩م، صفحة ٣٥) وفي هذا يقول:

لا إله إلا الله بالفن والثبات الثبات إلى الله والنقيّ لغيره

لا إله إلا الله توحيدها بيّات في ضمير القرية المستحيزة (إبرداشة، ٢٠١٩م، صفحة ٣٥)

ويبدو في شعر الشّيخ الأخضر بن خلوف التّوحد بالذّات المحمديّة، والهيام بها، فمثلاً يقول في قصيدة العالم بالغيوب سيدي:

نَحْمَدُ ربّ السما والأرض راوي عن لَقَطَابٍ جُمْلَةٍ
اللّوْحَ وَالْعَرْشَ بِشَوْفٍ لَحْظِي وَالْحَرْفُ أَيْ بَعِثَتْ يَتَلَى (حاكمي، ٢٠١٢م، صفحة ٢١٥)

ومن شعره الصّوفيّ الشّعبيّ عن يوم القيامة هذا المقطع:

الموت لا غنى تدركني صح الخبر بلا شك ولا ارتياب
ليته الرحيل ما يأتيني في كل حين حجلة سافر بها العقاب
ما أقواك راقدة يا عيني ما تنفكري رحيلك والرقدة في التراب

وهذه القصيدة تضمّ كثيرا من معالم التّصوّف، بدأها بالإقرار بحتميّة الموت التي لا مفرّ منها، وهو بمثابة ذلك العقاب المفترس عند الشّاعر، والذي ينقضّ عليّ الحجلة أو فريسة أخرى، دون أن يعلمها أو يستشيرها، والشّاعر هنا عندما يخاطب عينه الثّائمة لا يقصد نفسه فحسب، بل خطابه موجّه لكل غافل عن الآخرة، (حشفاي، ٢٠١٣م، صفحة ٢٦٧) وقد حمل خطابه الشّعريّ توجيهات دينيّة مستمدّة من القرآن الكريم، والشّريعة الإسلاميّة، وهي رسالة تحذير وتوجيه في نفس الوقت لكلّ إنسان غارق في ملذّات الحياة الدّنيا، وغافل عمّا ينتظره يوم القيامة، أين يحاسب الإنسان على أفعاله، واعتمد صيغة مخاطبة الدّات ليكون تأثيره أقوى.

وتجده رحمه الله يقول في مقام التوبة:

يَا مَنْ هُوَ حَقٌّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ اغفر ذنبي بِنُورِ آدَمَ وَحُوا

وبالحرمين والصفاء والمروا (اقبل) يَوْمَ الْحَسَابِ عُذْرِي

(اجعل) لِي مَا اسْعَيْتُ لَيْلَةً هَبِيَّةً وَالطَّاعُوتُ كَانَ كَفْرِي

إِيمَانِي بِيكَ سِرٌّ وَعَلَانِيَّةٌ ارحم يَوْمَ أَنْزُورَ قَبْرِي

أَعَفَّرَ لِي مَا مَضَى بَعَافِرُ التَّنْزِيلِ بِالتَّوَرَةِ وَالزَّبُورِ مَعَ الْإِنْجِيلِ

فالعارف يتقرّب إلى الله عزّ وجلّ بالطّاعات، فإذا أخلص لله تعالى في عباداته شملته العناية الإلهيّة، (حاكمي، ٢٠١٢م، صفحة ٢١٨) وحبّه الكبير للرّسول قد جعله كثيرا ما يراه في مناماته ويقظته، يتحدث إليه كأنّه أمامه، فيقول:

فِي السَّنَدِ تَصُحُّ كُلُّ رُؤْيَا دَنَّا مِنِّي وَ قَالَ مُوَلِّ الْفُرْقَانِي

مَا يَتَمَثَّلُ خَبِيثٌ بَيًّا مِنْ شَاهِدِي فِي أُمِّي فَلَقَدْ رَانِي (إبرداشة، ٢٠١٩م، صفحة ٣٦)

والشّعر الشّعبيّ الصّوفي عند الأخضر مرآة عاكسة لمعالم حياته المتواضعة، والمتّرفعة عن الدّنيا (حشفاي، ٢٠١٣م، صفحة ٢٧٢)، إلى جانب معانيه العميقة الصّادقة، التي تكشف عن شخصيّة متشبّعة بالثقافة الإسلاميّة، والرّؤية الصّوفية، التي صبغت القصيدة عبر مختلف المقامات التي اعتمدها، بالعشق الإلهي، والإخلاص لله، وحبّ النبي - صلّى الله عليه وسلّم - والتّوق إلى لقاء شفيق الأُمّة، وشعره قريب من الزّهد، فالكثير من مقاطعه الشّعريّة يحذّر فيها النّاس من الغلة، ونسيان أنّ الحياة فانية، لذا يجب العمل للدّار الباقية بالأعمال الصّالحة، خاصة أنّ الموت يأتي دون سابق إنذار ولا يميّز بين فرد وآخر،

*محمد بن أحمد بن مسايب: والذي عاش في العهد العثمانيّ في القرن الثامن عشر ميلاديّ، واختلف أسلوبه عن الشّيخ بن خلوف، إذ أنّه أبدع في الكلام الصّوفي أكثر، وقد تحرّر في تعبيره عن عشقه لله تعالى ولنبيّه الكريم، فتميّزت قصائده بحريّة لغويّة ولفظيّة مطلقة، وقد انطلقت مسألة الحريّة اللّغوية بالنسبة للصّوفي في القرن الثامن عشر، وما تلاه من أزمان والتي تجلّت عند الشّعراء الصّفيّين من خلال التّعبير عن عشقهم الإلهي المطلق أو عن شوقهم للقاء الله تعالى وسيدنا محمد - صلّى الله عليه وسلّم - (إبرداشة، ٢٠١٩م، صفحة ٣٨)، وقد نشأ وتعلّم الشّاعر على يد فحول الشّعر الملحون الجزائريّ أمثال ابن سهلة وابن التريكي، والمنداسي، ومصطفى بن إبراهيم، وغيرهم، وقد نظم

في الشعر الديني كمناجاة الله، وحب النبي ومدح الأولياء الصالحين، وللشاعر تجربة صوفية عبر عنها في كثير من قصائده (حني، ٢٠١٢، صفحة ٢٦٩)، وترجع أصول عائلته إلى الأندلس، تلقى تعليمه بالكتاب، فنال حظّه من حفظ القرآن والاطّلاع على بعض المتون النحوية والفقهية. (العقريب، ٢٠١٤م، ٢٠١٥م، صفحة ٢٦١). ومن شعره الشعبيّ الصوّفيّ الذي يقتدي فيه بالشعراء الصّوفية الذين ليست لديهم مشكلة أو عقدة من التحدّث عن (العشق) وهو درجة عالية من المحبة لله تعالى، أو الرسول (ص) أو الأولياء والصالحين، قصيدته (هاض الوحش عليّ) التي يتحدّث فيها عن الكعبة المشرفة، ويبيّن فيها مدى تأثره بالتصوف عموماً، وإبداعه في التّحرّر في اللّغة عند تبيينه لعشقه الإلهي. ويقول فيها:

طال الضر ولألي طبيب *** نتوحش خيال الحبيب

أنا نحوى غصن الرطيب *** نيرانه مقدياً

باقي هائم وحدي غريب *** ما ولي شي ليا

ناره في القلب راها اقدات *** من تفكار امام البنات. (سعيد، ٢٠٠٧م، صفحة دص):

وقد امتزجت قصائد الشاعر بكثير من التعبيرات الغزليّة العاطفيّة منها والجسدية الحسيّة، إذ يمدح الرسول-صلى الله عليه وسلّم- بألفاظ الحبّ الجسدي، ذلك لأنّه في الواقع تحت تأثير مقام الوجد التي يحدث خلال الاجتماع أو الاتصال الروحيّ بالنبيّ سواء في اليقظة أو في المنام، وهذا ما يظهر في قوله :

محبوبي كحل العين والشفر والحاجب والشالف

حسنه مكمول الزين يسحر العاشق بسر مخالف

ديما فوق الخدين الورد فاتح لونه متخالف. (إبرداشة، ٢٠١٩م، صفحة ٣٨)

كما نجد الكثير من التّحديد في قصيدة "بدر الدّجى عتّاس"، والتي نخلت من الطابع الأندلسي، ومن إيقاعاته المتنوّعة، فيحسب المستمع لزجله، أنّه قيل في الخمر والسكر والغرام، يقول فيها:

بدر الدجى عباس والليل راح

يحلى الطرب والكاس بين الملاح

قم يا نلسم قم دير الكيوس (إبرداشة، ٢٠١٩م، صفحة ٣٨)

وتقوم قصائده على فكرة الحبّ الممتلّ في الغزل، والمديح الممتلّ في المديح النبوي، والعشق والهيام، وطلب الوصال للمحبوب على مستوى الغزل، ويؤرّ الحبّ وطمع نيل الشفاعة (حني، ٢٠١٢، صفحة ١٥١).

ج- المرحلة الثالثة: في العهد الاستعماريّ (بروز الشعر الشعبيّ أكثر من الفصح): وخلال هذه المرحلة طغى الشعر الشعبيّ، وسيطر وغلب على الفصح، وقد اعتبر الشعراء الشعر المملحون الدينيّ في هذه الفترة وجها من وجوه المقاومة من أجل التّحرّر، وإذا كان الشعراء عاشوا فترة الاستعمار الذي صادر حرّيتهم، والحرّيّة هي مصدر وأساس كلّ إبداع، فإنّ الحرّيّة عرفوها في ارتباطهم بدينهم والتّعبير عن قضاياه، إذ كان الشاعر الجزائريّ يكتب ليتحدّى الاستعمار، وكان الدّين الإسلاميّ هو المحرّك النّابض لإعلان السّخط في نفوس الجزائريين الذين يتوقون للتّورة على

واقعهم، وبالتالي على الاستعمار الذي يحمل لواء التنصير، وهذا يعني العداء القديم المتجذر بين الدينين، ولهذا كان عهد الاستعمار عهد دين بالنسبة للجزائريين، خاصة لدى رجال الطّرق الصّوفية (عبد القادر ف.، ٢٠٠٨م، ٢٠٠٩م، صفحة ٢)، وقد برز الشّعر الشّعبيّ الصّوفيّ في عهد الاستعمار أكثر من الفصحى، خاصة لأنّ الاستعمار الفرنسيّ منع تعليم اللّغة العربيّة كما أنّ الكثير من عامة النّاس لا يتقن اللّغة العربيّة الفصحى، فاعتمد الشّعراء العاميّة لأنّها أقرب إلى الشّعب وليكون أثرها أكبر عمقا في نفوسهم، خاصة لتحسيسهم وتوعيتهم بأهميّة الحفاظ على دينهم، وهويّتهم، كي لا يطمسها المستعمر الفرنسيّ.

والشّعر الدّيني في عهد الاستعمار اعتمد كوسيلة للشّكوى إلى الله من ظلم الاستعمار، وقد لجأ الشّعراء الصّوفيون إلى اعتماد الرّمز الصّوفيّ للتّعبير عن انفتاح شعراء الملحنون على الخطاب الصّوفيّ. (عبد القادر ف.، ٢٠٠٨م، ٢٠٠٩م، صفحة ١٠، ١١)، وقد أثّرت الطّرق الصّوفيّة في معظم الجزائريين إبان الاستعمار الفرنسيّ خاصة شعراء الملحنون، فقيلت الكثير من القصائد في قضايا التّصوّف وموضوعاته، ونظمت قصائد في مدح شيوخ الطّرق الصّوفية، والتّعبير عن العشق الإلهيّ، والخمرة الإلهيّة وغيرها، وشحن أكثرها بالخرافات في تعظيم هؤلاء الشّيوخ، وتصوير أعمالهم في صور تسمو فوق النّاس، ويعود هذا إلى التّنافس الشّديد بين الطرق الصوفية، فجعلوا من شيوخ الطرق الصوفية رموزا غارقة في الخوارق (عبد القادر ف.، ٢٠٠٨م، ٢٠٠٩م، صفحة ١٩٦، ١٩٧)، ومن الذين مدحوا الطّرق الصوفية الشيخ المختار بن عبد الرحمان والذي يبدأ في مردياته بالرّغبة لطريقته الصّوفية، ويظهر ذلك في قوله:

أول بداية المريد تخلية لب ويد

يا من تريد قرع الباب لازم نظام ذا الخطاب

يقول الهنا ياعبدني مني إليك هذا الوجد

دار الفنا ليس تبقا داخل طريقنا بالفرقا

عن ذا المقال لا تحيد تذهب رذائل العلول

اجعل في اللب ذا الصواب اعقد وقول يا ذا الطول (عبد القادر ف.، ٢٠٠٨م، ٢٠٠٩م، صفحة ١٩٨)

وفي القرن العشرين برز الشّاعر الصّوفيّ أحمد بن مصطفى العلاوي، وهو مؤسس الطريقة العليوية؛ التي نسبت إليه سنة ١٩١١م، وهي الفرع الأخير من الطّريقة الدرقاويّة، وقد اتّصفت العليوية بالشّعائر الصّوفية، وكانت تدافع عن القضايا التّصوف، والهوية العربيّة والاسلامية في الجزائر، كما أنّها تعدّ من أحدث الطّرق الصّوفية تأسيسا، وتتبع في دعوتها طرقا حديثة، ونظما عصريّة من النّشر في الصّحافة وعقد الاجتماعات العامة، وغير ذلك (عامر، ٢٠٢٠م، صفحة ٦٤، ٦٥).

وللشّاعر قصيدة بعنوان ب"أيا رب سألناك النجاه" التي مطلعها:

أيا رب سألناك النجاه بأهل السلسلة يا ذا المنة

أيا رب سألناك بأهل الطريق الامانا على غوامض التحقيق

أمنتهم عن أسرار الحقيقة فصانوها ووضحوا الطريقة. (عبد القادر ف.، ٢٠٠٨م، ٢٠٠٩م، صفحة ٢٠٤) ويسأل الشاعر في المقطع الشعريّ الله النّجاة، إلى جانب أنّه يرغّب في طريقته الصّوفيّة إذ يمدحها، ويرى أنّ متبّعي طريقته، وشيوخها، صانوا الأمانة، وبلغوا الرّسالة إلى النّاس، ووجّهوهم إلى الطّريق الصّحيح.

ويعتبر الشّيخ الشاعر أحمد بن مصطفى العلاوي واحدا من الشعراء الشعبيين المتصوّفة الذين اشتهروا بالكرامات في كلّ مكان، وأهمّ ما ميّز شعره براعة المقال، ولوعة المقام، إذ أنّ خطابه يتعدّى الخطاب الفرديّ الشّخصيّ إلى الخطاب الإنسانيّ، وهو من شعراء العصر الحديث؛ حاول المزج بين المراحل السّابقة وذلك بالاهتمام بالمقامات الصّوفيّة المختلفة، والتّعبير عن العشق الإلهيّ، وتميّز شعره بالبساطة والعمق، وقد استعمل في شعره كلمات عذبة، صادقة، تعبّر عن ممارسته لتصوفه بالصّحيحة الصّائبة، وكان قريبا جدّا لشعر الفترة المعاصرة، وقد لوحظ عليه تغييرات كثيرة في المرحلة الممتدّة من القرن العشرين وما يليه (إبرداشة، ٢٠١٩م، صفحة ٤١، ٤٢).

ومّا قاله الشاعر العلاوي في مذهب الحبّ:

أيّكُ تُميل عن مذهب الحب

فلا ملام إن قلتُ في كاسي

ومصطلح الحبّ من المصطلحات المترددة كثيرا في أشعار الصّوفيّة، والله هو المحبوب (حبيب، ٢٠٢٠م، صفحة ٣٠)، وأهمّ ما يلاحظ على قصائد الشاعر أحمد العلاوي أنّها تتكئ في معظمها على الأسلوب الرّمزيّ، وعلى الإشاريّة في نقل أحاسيس الوجد، والفيض، وكغيره من الشعراء المتصوّفة فإنّ عشقه الإلهي قد تبوّأ المكانة الكبرى في جميع قصائده وأشعاره، وقد نخل من التّراث العربيّ العريق، إذ استعار اسما من أسماء محبوبات شعراء المعلّقات ليناجي به الذات الإلهيّة، وهو اسم ليلى محبوبه قيس، رمزا للتّعبير عن شوقه وتوقه للقاء الله، فيقول:

دنوت من حبّ ليلى لما سمعت نداها

يا له من صوت حلو يا ريت لا يتناهى (إبرداشة، ٢٠١٩م، صفحة ٤٢).

وما يمكن قوله في الأخير أنّ الشعر الشعبيّ الصّوفيّ في الجزائر قد عرف تطوّرا عبر مراحل ثلاث بارزة؛ بداية بالعهد الحماديّ مع أبي مدين شعيب عن طريق الأزجال والموشّحات، مع الإشارة إلى وجود اختلاف بين الباحثين حول نسبة بعض أشعاره إليه، إلى جانب الششتريّ، وشعراء آخرين، ولا أحد ينكر فضل الأندلسيين والهجرة في بروز الشعر الشعبيّ الصّوفيّ الجزائريّ، من خلال ظهور الأزجال والموشّحات والتي تقترب كثيرا من الشعر الشعبيّ على حدّ تعبير بعض النّقاد، كما أشارت إليه الورقة البحثيّة، أمّا المرحلة الثّانيّة فهي مرحلة العهد العثمانيّ الذي برز فيها الشعر الشعبيّ الصّوفيّ، وانتشر أكثر من الفصيح، ويعود ذلك لظروف سياسيّة واجتماعيّة خاصة بحكم الأتراك، وأشهر من برز فيها الشّيخ الأخضر بن خلوف في القرن ١٦ ميلادي، والذي تميّز شعره بسلطة المقامات الصّوفيّة، وبن مسايب في القرن ١٨ ميلاديّ، والذي كان أكثر تحرّرا في التّعبير عن عشقه لله تعالى ورسوله، أمّا المرحلة الأخيرة والتي كانت في المرحلة الاستعماريّة، فقد اتخذ الشعر الشعبيّ الصّوفيّ فيها لمواجهة الاستعمار الفرنسيّ، وللمحافظة على تعاليم الدّين الإسلاميّ، وغلب فيها الشعبيّ على الفصيح أيضا بفعل الاستعمار، وكثير من شعراء هذه المرحلة يدعون إلى

اتباع الطّرق الصّوفيّة، وقد برزت مظاهر التجديد عندهم، واستمرّت إلى الفترة المعاصرة، إذ وظّف الشعراء الشّعبيون في كلامهم الرّموز الصّوفية العميقة، وتمثّل شعراء القرن العشرين، وما تلاها، بلغ فيها الشعر الشّعبي الصّوفيّ مرتبة عليا، علما أنّنا اكتفينا ببعض الشعراء فقط، لكن يوجد الكثير من الأعلام برزوا أيضا في هذا الغرض الشّعريّ، ولا يخفى علينا أهميّة هذا النوع من الشعر، في ترسيخ القيم الدّينية وتعزيزها، خاصة، إن التزم بالتعاليم الصّحيحة المبنية على الشّريعة الإسلاميّة، إلى جانب دوره في الحفاظ على هويّتنا وقيمنا الأصيلة، لذا يجب الاهتمام به بشكل أفضل، وتدوينه وجمعه في كتب كي لا يندثر مع الزّمن، واستغلال وسائل الإعلام المختلفة لنشر ما يخدم الشعب الجزائريّ، إلى جانب عقد ندوات وملتقيات تحتّم بهذا الموروث الأصيل.

قائمة المراجع:

- ١- أبو مدين شعيب الغوث، إعداد وجمع وترتيب: عبد القادر سعود، سليمان القرشي، (٢٠١١م)، ديوان أبي مدين شعيب الغوث، دار كتاب ناشرون، بيروت، لبنان، ط ١.
- ٢- إحسان إلهي ظهير، (١٩٨٦م)، التصوف، المنشأ والمصادر، باكستان، الناشر إدارة ترجمان السنة، ط ١.
- ٣- الششتري، جمع علي سامي النشار، (١٩٦٠)، ديوان أبي الحسن الششتري، مصر، دار المعارف، ط ١.
- ٤- بومدين هشام نمر، (نوفمبر ٢٠٢٢م)، مدينة بجاية، معقل صوفي مهم خلال الفترة الوسيطة، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطة، المجلد ٨، العدد ٢.
- ٥- جلّول دواجي عبد القادر، (أكتوبر ٢٠١٨)، الشعر الشعبي قراءة تأثيلية في المفهوم والتطور وأشهر الأعلام، مجلة الثقافة الشعبية، العدد ٤٣.
- ٦- جلّول دواجي عبد القادر، (٢٠١٦م)، قراءة في سيرة الشاعر الشعبي سيدي الأخضر بن خلوف، مجلة الثقافة الشعبية، العدد ٣٣، الموقع: <https://folkculturebh.org/upload/issues/issue٣٣.pdf>
- ٧- حاكمي لخضر، (٢٠١٢م)، المقامات الصوفية في شعر سيدي لخضر بن خلوف، مجلة الموروث، المجلد ١، العدد ١.
- ٨- حمزة حمادة، (الموسم الجامعي ٢٠١٤، ٢٠١٥م)، بنية الخطاب الصوفي في ديوان الششتري، أطروحة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر باتنة.
- ٩- حميد نقروش، (٢٠٢٠م) الطرق الصوفية في المجتمع الجزائري وأدوارها في إرساء قيم التسامح " الطريقة الرحمانية أنموذجا، مجلة أسئلة ورؤى، المجلد ١، العدد ٢.
- ١٠- حياة معاش، (الموسم الجامعي ٢٠١٠، ٢٠١١م)، الأشكال الشعرية في ديوان الششتري-دراسة أسلوبية-، أطروحة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر، باتنة.
- ١١- رشيد أمديون، (٤ جلفني ٢٠٢٢م)، الرؤية الصوفية في خطاب الشعر الملحون عند عبد القادر العلمي، يوم:

<https://www.alquds.co.uk>.

١٢- سعيد جاب الخير، (٤ ماي ٢٠٠٧)، التصوف وشعراء الملحنون في الجزائر: بن مسايب أنموذجا، مقال نشر بمجلة إيلاف الإلكترونية - لندن، العدد ٦٤٥٣

<https://elaph.com/Web/ElaphLiterature/٢٠٠٧/٥/٢٣١٢٠٧.htm>

١٣- سوسن إبرداشة، (ديسمبر ٢٠١٩م)، آليات الإبداع والتجديد في الشعر الشعبي الصوفي الجزائري "دراسة مقارنة في نماذج مختارة"، مجلة العلامة، جامعة الجزائر ٢، أبو قاسم سعد الله، الجزائر، مجلد ٤، عدد ٩.

١٤- عبد العالي الشرفاوي، (١٨ مارس ٢٠١٥م)، الزجل الصوفي في الأندلس: زجل الششتري (١٦٦٨هـ) نموذجاً، <https://machahid٢٤.com/art-et-culture/٤٩٢٤١.html>

١٥- عبد القادر صحراوي، الموسم الجامعي، ٢٠٠٨م، ٢٠٠٩م، التصوف والمتصوفة في الجزائر العثمانية ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، أطروحة دكتوراه، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس.

١٦- عبد القادر فيطس، (الموسم الجامعي: ٢٠٠٨م، ٢٠٠٩م)، الشعر الملحن الديني الجزائري، ١٨٣٠، ١٩٥٤م، دراسة تحليلية فنية، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر.

١٧- عبد اللطيف حني، (٢٠١٢م)، البنية الأسلوبية في الخطاب الشعري الشعبي-ديوان ابن مسايب نموذجاً-، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر-بسكرة-، العدد ٨

١٨- عبد الوهاب فرحات، أبو مدين شعيب ومكانته في التصوف المغربي، مجلة جامعة الأمير عبد القادر.

<https://www.asjp.cerist.dz/en/downArticle/٨٣٣/١/٢/٢٠٨٢٩٣>

١٩- عبد الله خضر حمد، (٢٠١٦م)، شعرية الخطاب الصوفي، ديوان عبد القادر الجيلاني أنموذجا، الأردن، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط ١

٢٠- فايد سليمان مراد، (الموسم الجامعي، ٢٠٠٧، ٢٠٠٦م)، التصوف في الشعر الشعبي للشيخ قدور بن عشور الزرهوني، دراسة تحليلية، أطروحة دكتوراه، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان. <https://dspace.univ-tlemcen.dz/handle/١١٢/٧٠٦٩>

٢١- كمال لعور، (٢٠٢١ ربيع)، الصوفي ابو مدين شعيب التلمساني في المخيال الأدبي والشعبي، شيخ الشيوخ ومعلم المعلمينAAAAAAAAAAAAAAAAAAAA، مجلة الثقافة الشعبية، العدد ٥٣.

٢٢- كرم رافع نصر، (دت)، الأدب الشعبي في تراث جبل العرب، الجزء ١٠، دط.

٢٣- نسيم مساعدي، (الموسم الجامعي ٢٠١٦م، ٢٠١٧م)، سيميائية الشعر الشعبي، قراءة في شعر عبد الرحمان المجذوب وعلي بن الحفصي، أطروحة دكتوراه، جامعة العربي بن مهيدي.

- ٢٤- نعيمة العقريب، الشعر الملحون الجزائري، (الموسم الجامعي، ٢٠١٤ م، ٢٠١٥ م)، بنياته وجمالياته، دراسة في المنجز النصي، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر ٢.
- ٢٥- لخضر حشغالي، (جويلية ٢٠١٣ م)، البعد الصوفي في شعر لخضر بن خلوف، مجلة أنسنة للبحوث والدراسات، العدد ٧، جوان ٢٠١٣.
- ٢٦- نزار شكور شاكر، (٢٠١٢ م)، توظيف الاصطلاحات الصوفية في شعر الششتري ت ٦٦٨ هـ، مجلة آداب الرافدين، العدد ٦٤.